أول شهيدة في الإسلام
وعبرتها لحاضر المسلمين ومستقبلهم

السيِّدة سُميَّة أمّ عمَّار ابن ياسر

الشهيـــــــدة

■■ هي سُمَيَّـــة بنت خُبَّاط مولاة أبي حُذَيْفَة بن المُغِيرَة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهي أمّ عمَّار بن ياسر رضي الله عنهما .

زوجها : ياسر بن عامر العَنْسِيّ ، وهو حليف بني مخزوم من قريش ، وكان قدم مكَّة من اليمن ، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي ، فزوّجه أمته سُميَّة ، فولدت له عمَّاراً ، ويُكنّى ياسر : أبا عمَّار ؛ بابنه عمَّـــار .

وأعتق أبو حذيفة أَمَتَهُ سُميَّة قبل الإسلام ، ولم يزل عمَّار وأبوه وأمّه مع أبي حذيفة ، إلى أن مات أبو حذيفة .

وجاء الإسلام ، فأسلم ياسر وسمية وعمار وأخوه عبد الله بن ياسر وحَسُن إسلامهم ، وكانوا من السابقين الأولين إلى الإسلام عليهم رضوان الله .

فقد أسلموا قديماً ، ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة المكرمة ، بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلاً ، وكانت سُميَّة من المبايعات الخيِّرات .

وكان أوَّل من أظهر الإسلام بمكة سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق ، وبلال بن رباح الحبشي ، وخَبَّاب بن الأرَتّ ، وصهيب الرومي ، وعمَّار بن ياسر ، وسُميَّة أم عمَّار ، رضي الله عنهم جميعاً .

فأما رسول الله ﷺ ، فمنعه عمّه أبو طالب . وأما أبو بكر ، فمنعه قومه . وأُخذ الآخرون فأُلبسوا أدراع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس ، حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ ، ولكنهم صبروا وصابروا . ■■

« صـــبراً آل ياســـــر ، فإنَّ موعدكم الجنَّـــــة »
[محمـــد رسول الله ﷺ]

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

وكان بنو المغيرة - من بني مخزوم - يتولون تعذيب آل ياسر على الإسلام ، وكانت سُميّة تابى بعناد وإصرار وثقة غير الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ يمر بعمَّار وأمه وأبيه ، وهم يُعَذَّبون بالأبطح في رمضاء مكة ، فيقول : « صبراً آل ياسر ، فإنَّ موعدكم الجنَّة » .

وجاء أبو جهل المخزومي ذات مساء ، فجعل يشتم سميّة ويرفث ، ثم طعنها في قلبها فقتلها ، وكان موتها قبل الهجرة .

وفي رواية : أن أبا جهل طعنها بالرمح في فخذها ، فسرى الرمح إلى فرجها ، فماتت شهيدة ، فقال عمَّار : « بلغ العذاب منها كل مبلغ يا رسول الله » ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تُعذِّب أحداً من آل ياسر بالنَّار » .

وهكذا ماتت سُميَّة ، فكانت أول شهيد في الإسلام[1] .

أَبْطَـــح مكَّـــــة

الأبطح لغةً : كل مسيل فيه دِقاقُ الحصا فهو أبْطَح ، والأبطح والبطحـــاء : الرّمل المنبسط على وجه الأرض . والأبطح أيضاً : أثر المسيل ضيِّقاً كان أو واسعاً

والأبطح يضاف إلى مكة ، وإلى (منىٰ) ، لأن المسافة بينه وبينهما واحدة ، وربما كان إلى منى أقرب ، وهو المُحَصَّــب ، وهو خَيْف بني كِنانة .

قـــال حُمَيْــــد بن ثور الهلالي :

أقول لعبد اللّهِ بيني وبينه ... لك الخير خَبِّرني فأنت صديقُ
تراني إن علَّلتُ نفسي بسَرْحةٍ ... من السَّرْح موجوداً عليَّ طريقُ
أبىٰ اللّهُ إلَّا أنَّ سَرْحَة مالكٍ ... علىٰ كلّ سرحات العِضاة تروقُ
سقى السَّرْحَةَ المِحْلَالَ والأبْطَح الذي ... به الشَّرْيُ غَيْثٌ مدْجِنٌ وبُروقُ
فقد ذهبتْ طولاً فما فوق طولها ... من النَّخل إلَّا عَشَّةٌ وسَحوقُ
فيا طيبَ ريَّاها ويابَرْدَ مائِها ... إذا حانَ من حامي النَّهار وُدوقُ
حمىٰ ظِلَّها شكسُ الخليقةِ خائفٌ ... عليها غُرام الطَّائفين شفيقُ
فلا الظِّلَّ من بَرْد الضُّحىٰ تستطيعه ... ولا الفيءَ من بردِ العَشِيّ تذوقُ[2]

وكان تعذيب سمية وآل ياسر يجري في هذه البطحاء ، عليهم الحديد ، في شدة حر الأبطح ؛ الذي لا يطاق شتاء ، فكيف يطاق صيفاً والشمس في كبد السماء !

ومع ذلك صبرت سميّة ، حتى استشهدت فداءً للإسلام الذي اعتنقته رغبة لا رهبة ، وطوعاً لا قسراً .

وكل عذاب وتعذيب في سبيل العقيدة - بالنسبة للمؤمن حقاً - يسهل ويهون .

السيّدة سُمَيّة أمّ عمّار ابن ياسر

أول شهيدة في الإسلام وعبرتها لحاضر المسلمين ومستقبلهم

مصير القاتل

قاتل سميّة ، هو ابو جهل بن هشام المخزومي ـ كما ذكرنا ـ وكان اشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، واكثرهم اذىً له ولأصحابه .

واسمه : عمرو ، وكنيته : ابو الحَكَم ، وهو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

واما ابو جهل ، فالمسلمون كنوه به ، لأن من اقل جرائمه واهونها على نفسه يومئذ ، كان قتل سميّة ، وتعذيب المسلمين واضطهادهم .

وعاد ابو جهل إلى البيت الحرام بمكة ، يختال في مشيته بعد ان لطّخ سلاحه بدم سميّة ولطّخ يديه بتعذيب المسلمين المستضعفين على الإسلام ، يزفّ إلى قريش ما صنعت يداه دفاعاً عن اللات والعزّى ، فتلقى تهاني كفار قريش وثناءهم ، فأطربه التشجيع والثناء .

ومضى قُدماً يبتكر ما يؤذي به المسلمين ابتكاراً ، حتى تفوّق على اضرابه من كفار قريش بالشر والاذىٰ ، فلمع اسمه بالشر لا بالخير ، وبالسوء لا بالحسنى ، حتى أصبح زعيماً من زعماء كفّار قريش المعدودين .

ودار الزمن دورته ، وهاجر المسلمون إلى الحبشة ، ثم هاجروا إلى المدينة المنوّرة ، وهاجر النبي ﷺ إليها ، وبدا الجهاد في السنة الثانية الهجرية ، بعد ان استقر المسلمون في قاعدتهم الأمينة : المدينة المنورة .

وحرّض ابو جهل كفار قريش إلى الخروج إلى موقع (بَدْر) لقتال المسلمين ، فخرجت قريش وخرج حلفاؤها معها .

وارسلت قريش **عُمَير بن وَهْب الجُمَحي** ليستطلع لهم قوة المسلمين القادمة إلى (بدر) ، فعاد إليهم عمير واخبرهم أن المسلمين ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً او ينقصون قليلاً ، ولا كمين لهم ولا مدد ، ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجا إلاّ سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل ان يقتل رجلاً مثله من قريش .

وتضاربت آراء قريش ، منهم من يريد الرجوع إلى مكة بدون قتال ، ومن هؤلاء بنو زُهرة الذين عادوا ادراجهم إلى مكة دون قتال ، ومنهم من يريد قتال المسلمين ، حتى يُظهروا قوّتهم ؛ للمسلمين خاصة وللعرب عامة .

وكان ابو جهل على راس الذين ارادوا البقاء لقتال المسلمين ، فقال : « والله لا نرجع ، حتى نرد (بدراً) ، فنقيم عليه ثلاثاً ، ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا ابداً بعدها » .

وقصد حكيمُ بن جزام عُتبة بن ربيعة ، فقال : « **يا ابا الوليد ! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ! هل لك إلى ان لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟** » .

قال عُتبـــــة : « **وما ذاك ؟** » .

قـــال حكيـــم : « **ترجع بالناس ، وتحمل امر حليفك عمرو بن الحَضْرمي** » .

قال عتبة : « **قد فعلتُ ، انت عليَّ بذلك ، إنما هو حليفي ، فعليَّ عَقْلُه[3] وما أُصيب من ماله ، فأْتِ ابنَ الحنظليّة** » ، والحنظلية أم ابي جهل ، وهي اسماء بنت مُخرِّبة إحدىٰ بنات نَهْشَل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة التميميّة .

واردف عتبة : « **فإني لا اخشىٰ ان يشْجُرَ[4] امرَ الناس غيره** » ، يعني ابا جهل بن هشام .

وانطلق حكيم حتى جاء ابا جهل ، فوجده نثل[5] درعاً من جرابها يَهْبُنُها[6] ، فقال له : « **يا ابا الحكم ! إن عتبة ارسلني إليك بكذا وكذا ...** » .

قال ابو جهل : « **انتفخ والله سَحْرُه[7] حين رأىٰ محمّداً واصحابه ! كلاّ ، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعُتبة ما قال ، ولكن قد رأىٰ ان محمداً واصحابه اكلة جزور ، وفيهم ابنه ، فقد تخوّفكم عليه** » .

وبعث ابو جهل إلى عامر بن الحضرمي ، فقال له : « **هذا حليفك يريد ان يرجع بالناس ، وقد رأيتَ ثارك بعينك ، فقم فانشد خُفْرَتك[8]** » .

وقام عامر بن الحضرمي ، فاكتشف ثم صرخ : « **واعمْراه !! واعمْراه !!** » ، **يريد الأخذ بثار اخيه عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون في سرية (نَخْلَة)[9]** .

وحميت الحرب ، وحَقِبَ[10] امر الناس ، واجتمعوا على ما هم عليه من الشرّ ، وبذلك اخذ ابو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

وهكذا سعى ابو جهل إلى حتفه بظلفه !

وبدأ القتال في غزوة بدر الكبرىٰ بين المسلمين والمشركين ، فنظم الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام اصحابه صفوفاً ، وقاتل المشركين بأسلوب الصفوف ، بينما قاتل المشركون المسلمين بأسلوب الكرّ والفرّ .

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : « إني لفي الصف يوم (بدر) ، إذ التفتّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي احدهما سِرّاً من صاحبه : يا عم ! أرني أبا جهل ! فقلت يا ابن أخي ! ما تصنع به ؟! قال : عاهدت الله إنْ رأيته ان اقتله او أموت دونه ...

« قال لي الآخر سِرّاً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه ، فشدّا عليه مثل الصُّقرين ، فضرباه حتى قتلاه » .

وقد استشهد هذان البطلان في (بدر) ، وهما ابنا عفراء : عوف بن الحارث الخزرجي الأنصاري ، ومُعَوِّذ بن الحارث الخزرجي الأنصاري رضي الله عنهما .

ولم يلفظ ابو جهل انفاسه الأخيرة بطعنات ابني عفراء ، لأنه كان ضخماً قوياً مفتول العضلات ، ولأنَّ ابني عفراء كانا حدثين ، فمر بأبي جهل وهو عَقيرٌ عبدُ الله بن مسعود ، فأجهز عليه .

والعجيب في الأمر ، أن عبد الله بن مسعود الذي أجهز على ابي جهل ، كان هو

■ إنَّ سمية قدوة صالحة لكل مسلم ، من ذكر وأنثىٰ ، استطاعت بإيمانها الراسخ أن تنال مجد الدنيا والآخرة ، فقد سجّلها التاريخ في أنصع صفحاته مع الصدِّيقين ، وكان لها أجر الشهداء الصابرين . ■

الآخر من المستضعفين الذين عُذِّبوا على الإسلام .

ولما قُتل ابو جهل يوم بدر ، قال النبي ﷺ لعمَّار بن ياسر الذي شهد الغزوة مع مَنْ شهدها من المسلمين : « **قتل الله قاتل أمِّك** » .

عبــــرة سميَّـــــة

كانت سميّة حين استشهدت عجوزاً ضعيفة ، وكانت أَمَةً من الإماء ، فقيرة معدمة ، لا حول لها ولا طول ولا قوة .

ولكنها ثبتت على عقيدتها ثبات الراسيات ، ولم تستسلم للوعد والوعيد والضغط والإرهاب .

كانت قوية بعقيدتها ، وكانت عقيدتها أغلى عليها من روحها ، فبذلت روحها رخيصة في سبيل الله ، لتحتفظ بعقيدتها لا تشوبها شوائب الضعف والتراجع والاستخذاء .

لقد تحملت سميَّة صابرةً محتسبة ، وبذلت ما بذلت قوية ثابتة ، وكان إيمانها الراسخ هو مصدر قوتها التي لا تُقاوم ، فبزّت بتضحيتها وفدائها ـ وهي العجوز الضعيفة الأمة الفقيرة المعدمة التي لا حول لها ولا قوّة ـ الشباب الصغار الأقوياء الأحرار الأغنياء أصحاب الثراء والحول والقوة ، لأنها كانت قوية بإيمانها الراسخ لا بمظاهرها الخارجية الخلَّابة ، وغيرها لا إيمان لهم يعصمهم من الانحراف .

والإيمان الراسخ ، هو الحافز القوي على الثبات دفاعاً عن الحق والمُثل العليا ، فما أحرانا عرباً ومسلمين أن نتعلم من سميَّة هذا الدرس الثمين .

واليوم نجد اكثر الناس يهتمون بتخمة جيوبهم بالمال ، ولا يهتمون بخواء قلوبهم من الإيمان .

وقد انتصر العرب المسلمون في الصدر الأول من الإسلام بالإيمان وحده ، فقد كانوا فقراء مادياً أغنياء روحياً ، فانتصروا بالعقيدة لا بالمال .

كانوا أصحاب قلوب لا عبيد جيوب ، فانتصروا بقلوبهم العامرة بالإيمان .

فأصبحنا أصحاب جيوب لا أصحاب قلوب ، فهزمنا بجُيوبنا المتخمة بالمال والأهواء .

أفلاَ يَتساءل العرب والمسلمون اليوم لماذا نزع منهم النصر وتكالبت عليهم الأمم ، وقد أصبحوا اليوم بحمد الله أغنياء !!

كانوا فقراء ، ولكن كلّ واحد منهم يتمنى الموت شهيداً قبل صاحبه ـ كما قال **خالد بن الوليد** لأحد قادة الروم ـ فانتصروا بالإيمان الراسخ الذي يقود إلى الإيثار ويقتلع الأثرة من جذورها .

إن انحراف الشباب ـ خاصة عن مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام ليتممها ـ وركونهم إلى الترف والمباذل تقليداً للأجانب في سلوكهم وأخلاقهم ، ليس في مصلحة العرب والمسلمين في شيءٍ ، بل في مصلحة أعداء العرب والمسلمين ، وهؤلاء الأعداء هم الذين يزيِّنون للعرب والمسلمين الانحراف والترف ، حتى ولو تزيّا هؤلاء الأعداء بزي الأصدقاء أو الأشقاء !

والحكماء من الأجانب يشكون مرّ الشكوىٰ من انحراف قسم من شبابهم ، ويرون فيه نذيراً بزوال حضارتهم ، لأنه يمثِّل قمة الترف والانحراف ، فما ينبغي أن نقلِّدهم في عوامل فنائهم ونتخلىٰ عن أخلاق القرآن الكريم ، فلسنا بحاجة إلى ما يزيد أمورنا ضعفاً وتعقيداً .

تُــرىٰ ! لو عادت سميَّــة إلىٰ الدنيا من جديد ، ورأت ما يشيع من انحلال في شبابنا ـ خاصة الفتيات الكاسيات العاريات ـ أكانت ترضىٰ لهم ما رضوا لأنفسهم !

والعبرة الثانيــة من سميَّة ، هي مصير الظالم ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وقد أمهل أبا جهل بضع سنين ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ، فكان مصيره مصير كل ظالم .

وقد كان قتل سميَّة هيِّناً على أبي جهل ، ولكنه عند الله عظيم .

والظالمون الذين يفلتون من عقاب البشر ، لا يفلتون من عقاب ربِّ البشر ، وصدق الله العظيم ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَـافِلًا عَمَّـا يَعْمَلُ الظَّـالِمُونَ** ﴾ (**إبراهيم : ١٤ : ٤٢**) **فهل يعتبر الظالمون ، أم على قلوب أقفالها !**

إنَّ سميَّة قدوة صالحـــة واسوة حسنة لكل عربي ومسلم من ذكر وأنثىٰ ، وقد استطاعت بإيمانها الراسخ ان تنال مجد الدنيا وأجر الآخرة ، فقد سجَّلها التاريخ في انصع صفحاته مع الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، وكان لها أجر الشهداء الصابرين المحتسبين .

فهنيئـــاً لسميَّة مجد الدنيا والآخرة ، وهنيئـــاً للذين يتخذون منها قدوة حسنة واسوة صالحة .

وويل للظالمين الذين سيصيبهم القصاص العادل حتماً ، إن لم يكن اليوم .. فغداً ، وإنَّ غداً لناظره قريب .

ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصـــر الله .

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦٤) والاستيعاب (٤/ ١٨٦٣) وأسد الغابة (٥/ ٤٨١) والإصابة (٨/ ١١٣) .
(٢) معجم البلدان (١/ ٨٥ ـ ٨٦) .
(٣) عقلــــه : ديّتــــه .
(٤) يشجر : الذي يخالف بين الناس ويحملهم على عدم الوفاق ، مأخوذة من المشاجرة .
(٥) نثل درعاً : أخرجهـــا .
(٦) يهنئها : يتفقدها ويعدّها للقتال .
(٧) السَّحْر : الرئة وما حولها .
(٨) خفرتـــك : عهـــدك .
(٩) نخلـــة : موضع بين الطائف ومكة المكرمة .
(١٠) حقب أمر الناس : اشـــتد .